أندلسيات :

٣ـ قصة الفتح بن خاقان

للاستاذ عبد الرحمن البرقوقي

أهجوه الفتح

تقول إن ابن بسام كان أعفّ لسانا ، وأنزه بيانا . أما الفتح ابن خاقان فقد كان مقذعا هجاء الى أنه كان مداحا فسالا [(١)] ، فمن أرضاه وأهاه ، مدحه وفتح لهاه ؛ ومن لا يرضخ له من ماله بما يرضيه ، هجاه وأقذع وولغ فيه . وربما دسّ له لدى أولى الأمر وضرّاهم عليه . ومن ذلك ما كان منه مع فيلسوف الأندلس أبي بكر بن الصائغ وطبيبها الأكبر أبي العلاء بن زهر كما سيمر بك قريبا ... وقد كان مع ذلك سكيراً معربدا الى هنوات أخرى لقد يندى لها جبين الأدب ، وقعدت به عن بلوغ المراتب التي بلغها أمثاله ومن هو دونه . قال الوزير لسان الدين بن الخطيب في حق الفتح : كان آية من آيات البلاغة لا يُشق غباره ، ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعوبا بأطراف الكلام ، معجزا في باب الحلَى والصفات ، إلا أنه كان مجازفا مقدوراً عليه [(٢)] ، لا علّ من المعاقرة والقصف حتى هان قدره ، وابتذلت نفسه ، وساء ذكره ، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره . واوغلا في عليته [(٣)] ...

وقال ابن بشكوال في الصلة : وكان ـ الفتح ـ معاصرا للكاتب أبي عبدالله بن أبي الخصال ، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته . وجاء في النفح أن الفتح قصد يوما الى مجلس قضاء أبي الفضل عياض ـ صاحب الشفاء ـ مخمورا ، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك ، فاستثبت وحدّه حداً تاما .

وبعث اليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ... فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان ؛ قال : فقلت له : لا تفعل ، وهي نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك فيقال له ، فيتوارث العلمَ عن الأكابرِ الأصاغرُ ؛ قال : فتبين ذلك وعلم صحته وأقرّ اسمه في (القلائد)

ولقد أزلفنا أنه هجا الفيلسوف ابن الصائغ وأقذع في ترجمته له في القلائد ، ثم مدحه وأثنى عليه في المطمح ؛ وقد حدثنا الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سبب هجائه إياه أولا ، قال : وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجه أبي بكر آخر فلاسفة الاسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به في تكذيبه إياه في مجلس اقرائه إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ، ووصف حليا ، ـ وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون ، فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزُمرّدة التي على شاربك ... فثلبه في كتابه بما هو معروف ...

أما مدحه إياه بعد إذ هجاه فقد ذكر لنا العماد أن ذلك كان منه بعد أن أنفذ إليه مالا استكفّه به واستصلحه . . . وإليك نُتَفاً مما كتبه في القلائد هاجيا ، ثم مما كتبه في المطمح مادحا : قال في القلائد : « هو ـ أي ابن الصائغ ـ رَمَد عين الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفا وجنونا ، وهجر مفروضا ومسنونا ، فما يتشرع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهّر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوار في جدث ، ولا أقرّ بباريه ومصوّره ، ولا فرّ بتباريه في ميدان تهوره ، الاساءة اليه أجدى من الاحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الانسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم . الخ الخ [(١)] » . وقد أورد له متعمداً أبياتا ليست من جيد شعره . وأين هذا من تحليته له

(١) هو الذي يمدح الناس ليعطوه

(٢) المجازفة المخاطرة يقال جازف بنفسه إذا خاطر بها يرجع الى المساهلة كأنه ساهل بها وهو مجاز وما استدركه الزبيدي شارح القاموس . ولعل ابن الخطيب يريد أن الفتح كان مستهترا جريئا على فعل ما لا يليق بمثله . ومقدورا عليه يريد ـ لعله ـ أنه ضعيف الارادة لا يقدر على ضبط نفسه

(٣) في عليته أي في قصره وداره فيكون الضمير للأمير ، أو في سرواته وإشرافه فيكون الضمير الى البلد

(١) راجع قلائد العقيان

فى المطمح بقوله فيه ماهذا بعضه : « نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوّجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فتنا وتهدّل ، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذى هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذى يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، الخ الخ » . وأورد له شعرا جيدا . وكل أولئك تراه فى ترجمتنا لهذا الفيلسوف الأندلسى العظيم . . . أما ما كان من الفتح من الكيد للفيلسوف الكبير والطبيب النطاسى الأشهر والوزير الخطير أبى العلاء زهر لدى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، فقد جاء فى نفح الطيب ما نصه : « وكان بينه — أى بين أبى العلاء زهر — وبين الفتح صاحب القلائد عداوة » . ولذلك كتب فى شأنه إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ما صورته :

أطال الله بقاء الأمير الأجل سامعا للنداء ، رافعا للتطاول والاعتداء ، لم ينظم الله الملك بلبتك عقدا ، وجعل لك حلا للامور وعقدا . وأوطأ لك عقبا ، وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا ، الا أن تكون للبرية حائطا ، وللعدل فيهم باسطا ، حتى لا يكون منهم من يضام ، ولا ينال أحدهم اهتضام ، ولتقصر يد كل مُعتد فى الظلام . وهذا ابن زهر الذى أجررته رَسَنا ، وأوضحت له الى الاستطالة سُننا ، لم يَتَعمد من الأضرار إلا حيث اشتهيته ، ولا تمادى على غيّه إلا حين لم تنهه أو ألهيته ، ولما علم أنك لا تنكر عليه نكراً ، ولا تغيّر له متى ما مكر فى عباد الله مكرا ، جرى فى ميدان الأذية ملء عنانه ، ومرى إلى ماشاء بمدوانه ، ولم يراقب الذى خلقه ، وأمدّ فى الحظوة عندك طلقه ، وأنت بذلك مرتهن عند الله لأنه مكنك لئلا يتمكن الجور ، ولتسكن بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق ، وأخفق به كل فريق ، وقد علمت أن خالقك الباطش الشديد يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما يخفى عليه نجواك ، ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك ، وستقف بين يدى عدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم ، قد علم كل قضية قضاها ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فبم تحتج مني لديه ، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر منجيك فى هذا المقام ، أو يحميك من الانتقام ، قد أوضحت لك المحجة ، لتقوم عليك الحجة ، والله النصير ، وهو بكل خلق بصير ، لا رب غيره والسلام ... هذا جانب من خلائق الفتح : تحوّل وتقلّب ، ونقض لما أبرم ، وإبرام لما نقض ، وهجاء ثم مدح ، ومدح ثم هجاء ، ومناوأة للفلاسفة ، واستعداء للملوك والأمراء عليهم ، الى ما أشرنا اليه آنفا من خلعه العذار واستهتاره ، وإدمانه المعاقرة وفسوقه ، حتى كان ذلك سببا — كما يقول المؤرخون — فى تخلفه عن لداته وقعوده عن بلوغ عليا الرتب التى بلغوها . ومن هنا كان حبه المال حبا نال من كرامته ونقص من قيمته وصيّره شهرة لدى العلماء والأمراء وسائر العلية والسروات . ومما يؤخذ عليه أيضا غروره واعتداده بنفسه إلى أقصى حد ؛ ولا أدل على ذلك من قوله فى خطبة قلائده : «الحمد لله الذى راض لنا البيان حتى انقاد فى أعنتنا ، وشاد مثواه فى أجنتنا ، وذلل لنا من الفصاحة ما تصعب فلكناه ، وأوضح لنا من مشكلاتها ما تشعب فسلكناه ، فصار لنا الكلام عبدا يجيب إذا ناديناه ، ومهما يصيب الغرض إذا رميناه »

وبعد فقد كان هذا الأديب الألمى الموهوب من أولئك الأدباء الذين أدركهم داء الانحطاط ، ومثله كثير بين أدباء العرب والعجم والشرق والغرب قديما وحديثا ... وهذا الصنف من الأدباء والفنانين جدير بالرحمة والرثاء ، لأن عبقريتهم هى سر انحطاطهم ، إذ العبقرية فى الحق شعبة من الجنون كما شرح ذلك لمبروزو وماكس نوردو وغيرهما . وقد كان انحطاط هذا الأديب سببا فى قتله ... وفى أنفة مؤرخ كبير وأديب نابغ هو ابن الأبار القضاعى من ترجمته والتعرض لذكره ، فقد قال هذا ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى : إنه لم يكن مرضيا وحذفه أولى من إثباته . ولذا لم يذكره فى التكملة . أما قتله فقد قال ابن سعيد فى المغرب — بعد كلام — ما نصه : « وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجّه ، فوجد فى فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولا ... ... » ... وقال ابن دحية إنه قتل ذبحا باشارة على بن يوسف بن تاشفين ...

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقى